الصليبُ هو كلُّ شيءٍ في المسيحيَّة

بقلم المعلم الانطاكي الشماس

اسبيرو جبور

الصليبُ هو كلُّ شيءٍ في المسيحيَّة والشُهداء تهافتوا على منابرِ الإستشهاد.

حينَ تعذيبِ القدِّيس جاورجيوس حضَرَت في اليوم الأَخير الأَمبراطورة وتأثَّرَت بجهادِهِ، فأعلَنَت إيمانَها بالمسيح فأَدخلَها أَمبراطور الصين لتموتَ في اليوم الثاني بالسَّيف مع القديس جاورجيوس. وكثيرونَ تأثّروا بالشُهَداء وعرَضوا أَنفُسَهم لموتِ الشهادة. النُسَّاك عاشوا في البراري في الصَّومِ والصلاة والإبتهال. ما كان عمَلُهُم في البراري؟ عمَلُهم الصلاة والصَوم الدائم.

سمعان العامودي كان يقضي الصوم الكبير برُمَّتِه بدون طعامٍ ولا شَراب. العامودِيُّون نماذج نُسكيَّة غريبة عجيبة. الرهبانُ يصومونَ ويُصَلُّون ويَعملون، وليسوا بطَّالينَ أبداً. لا يتركونَ الجسدَ تنبلاً، ينشَطون في الدير في شتَّى مناحي أعمال الدير. والمؤمنون الحقيقيُّون في العالم يصومونَ ويُصَلُّون ويقمعونَ أجسادَهم ويفرُضون على أنفسِهم مكافحة الأَهواء وزَرْع الفضائلِ مكانَها. بولس الرسول قال في كولوسي1 والآية 24: " إِنّي أَفرحُ الآن بآلامي من أجلِكم وأُتِمُّ ما ينقُصُ من شدائدِ المسيح في جسمي لأَجلِ جسَدِهِ الّذي هو في الكنيسة". قالَ أَنَّهُ يُتَمِّم في جسدِهِ ما يَنقُص من شدائدِ المسيح. الرجل يطلُبُ أَن يتحمَّل كلَّ ما تحمَّلَهُ يسوع من شدائدٍ حتى يبلُغَ الكمال. إِنَّهُ يرى في نفسِهِ النقص.

القديس اغناطيوس الأَنطاكي المتوفّي في العام 107 كان يرى في نفسِهِ نقصاً لأَنه لم يستحقَّ الإِستشهاد، فكَتَبَ الى أَهلِ رومية يَرجوهُم ألّا يتوسَّطوا له لكَي يَنجوَ من الإِستشهاد. إِقتِدَ الى رومية برَغبةٍ عارمة في الإِستشهاد. فإذن، طبيعة المسيحيَّة هي ما قالَهُ بولس في غلاطية 5 الآية 24: " والّذينَ هُم للمسيح، صَلَبوا أَجسادَهُم بِكُل ما فيها من أَهواءٍ وشَهَوات". الذين هُم للمسيح صَلبوا أجسادَهُم مع الأَهواءِ

والشهَوات. المسيحيَّة هي صليب. واللهُ له المجد يعرِف رخاوتَنا وحاجتَنا الى الشِدَّة. والمسيحي يحتاجُ الى التَمَرُّس بالصعوبات والشدائد لكي يكتسبَ متانةً شخصيَّة ولكي يسودَ على جسَدِه. شهوةُ الجَسَد وشَهوةُ العَين تُعظِّم المعيشة. عَلّمَنا يوحنا الإنجيلي أن لا نُحِبَّ العالم ولا الأَشياءَ التي في العالم. ويعقوب الرسول علَّمَنا أَنّ محبَّةَ العالم هي عداوةٌ للّه. ولذلك فالشدائد تُحوِّلُنا، تُساعدُنا على التحويل. المسيحيَّة هي تحويل أَهواءَنا الى فضائل وعمليَّة هذه التحويل لا تتِمُّ إلّا بصعوباتٍ هائلة جداً.

نُميْتُ أَعضاءَنا الأَرضيَّة ونزرعُ مكانَها أعضاءً روحيَّة. نخلُقُ أعضاءَنا الجسديَّة لا لنميتَها مئة بالمئة، بل لِنُحوِّلُها الى فضائل. هذا يحتاجُ الى بطولاتٍ هائلة جداً. لا تموتُ أَعضاؤنا بسهولة ولا تسمح بالتحوُّل بسهولة، فتنتفضُ علينا كثيراً. مَهما ضغَطْنا على أَعضائنا الأَرضيَّة – الجسَديَّة فهي لا تموت إلا لحظَة الوفاة وتبقى عُنصر إزعاج في اللاوَعي. كلّما ضَغَطْنا عليها، كُلّما انتَفَضَت علينا. وهناكَ الشيطان الذي نحارِبُهُ والذي يُحارِبُنا بواسطة حواسِّنا وأَعضائنا الجسَديَّة. فالحربُ تحتدمُ كثيراً، وفي هذه الحرب ماذا نفعل؟ نَجمع طاقاتِنا المبعثَرة، طاقاتِ المستَثمرَة بأَهوائنا الجسديَّة، نسحَبُها من أَهوائنا الجسديَّة ونحوِّلُها بضميرٍ حيٍّ صارِم الى فضائل. هذه الحرب الروحيَّة تتطلَّب الفروسيَّة التامَّة، الأَقوى من فروسيَّة الماريشالات في الحروب. ولذلك تأتي الشدائد والضيقات والآلام كعناصر لِتمرَّس بها فترادُ قوَّةً وبطولةً وسيطرةً على الجسَد.

محبَّةُ العالم عداوةٌ للّه. هذا كلامٌ إلهيٌّ. والناس يُحبُّون أَجسادَهُم والعالم، وعليهم أَن يُعلِنوا الحرب على أَجسادِهِم وعلى العالم لِكَي يفوزوا بالمَلَكوتِ السماوي. والحربُ هي الحرب، تحتاجُ الى العَزم والعزيمة، الى البطولة والفروسيَّة.

في القَرن الماضي أي قَرن العشرين، سقَطَ أكثر من أربعينَ مليون شهيد أُرثوذكسي وهذا مسجَّل بالإنجليزيَّة على الإنترنت، والأَغلبيَّة الساحقة في روسيا، وكان التعذيب رهيب، فصُلِبَ البعضُ. في يوغوسلافيا سَقَطَ شُهَداء وفي تركيا سقطَ شُهداء. رَفضوا جميعاً أن يَنكُروا المسيح. وعندنا في تموز

1948 سقَطَ الأَب حبيب خشّي شهيداً فتحطَّمَ جَسَدُه برُمَّتِه فطَارَ الى ربِّه. لم يقَع ذلكَ قبل ثلاثة آلاف سنة بل وقَعَ في أَيامِنا ووَرَدَ ذلك على الإنترنت وفي الكُتُب وفي الأَخبار: ما نكَروا المسيح بل اعترَفوا بهِ بفَخرٍ واعتزازٍ واقتبلوا الموتَ بفرَحٍ عظيمٍ لأَنّ الروحَ القُدس ملأَهُم فاحْتَمَلوا ما احتملوا بقوَّةِ الروح القدس. والكنيسة تُعيِّد كثيراً للشهداء. هذه الكمِيَّة الكبيرة من الشُهداء في القرن العشرين لم يعرِفها التاريخ المسيحي خلال أَلفَي عام، فهي أكبرُ نسبةٍ من الْشهداء. حتى القيصر وعائلتُه ماتوا شُهداءً وأَعلَنَت الكنيسة قداسَتَهُم، ما نَكَروا المسيح. كان الخوري حبيب خشّي يُصلّي لكَي يموتَ شهيداً مثلَ أَبيه الخوري نقولا. الصلاة من أَجلِ الإستشهاد كانت معروفة في القُرون الأُولى في المسيحيَّة ولدى أوريجينّس كتابٌ في هذا الموضوع.

ما كلُّ الناس مُعرَّضون للإستشهاد. ظُروف الإستشهاد ظروف إضطِهاديَّة معيَّنة. ولكن القدِّيس افرام وسِواه من الآباء القدِّيسين ذَكَروا أَنّ الشهيد يموتُ دفعةً واحدة وأَمّا الناسك فيموتُ كلَّ يومٍ. إعتبَروا النُسك نوعاً من الإستشهاد.

مؤرِّخون كثيرون يَعيبون على عهدِ الأَمبراطور قُسطنطين الكبير إبتلاء المسيحيَّة بسببِه بالرخاوة. أي أَنّ المسيحيَّة قبلَهُ كانت تعيش تحت الإضطِهادات فتلمَع ويموتُ الناس قدِّيسينَ شُهَداء، أَمّا في أَيّامِه فارتخى حَبل المشنَقَة وسيفُ القطَّاعين السيَّافين ودَخلَ المسيحيَّة مائعون، فاندسَّت الميوعة على المسيحيَّة. ولذلك فالميوعة والتنبلة هما عَدوَّان لدودان للإنجيل.

مَن هُم الّذينَ يستَعفونَ من الآلام؟ هُم المتخاذلون الّذينَ ليسَ لهم من المسيحيَّة إلا طَرَف اللِّسان في بِضعِ كلماتٍ ليس فيها من الجِدِّ الحقيقي، والحسَّاسون الّذينَ لا يتحمَّلون وَخزَ الإبرَة.

في التحليلِ النفسي هؤلاء مُصابون بكَبْتٍ شديدٍ، يحتاجُ الى معالجَة. الحسَّاسون لا يتحمَّلونَ التوبيخ والتقريع والملاحظات. وإن كانوا متديِّنين، فهذا لا يعني أَنّهم أَبرياء، فهُم سريعو الإنفعال. سريعو

الإنفعال والحسَّاسون يُخفون في شعورِهم رُدود فِعل غضبيّة صامتة، وأحياناً قد تبدو ظاهرة. والحفيظةُ موجودةٌ لدَيهم. ليست لديهِم القُدرَة على الجِهاد الروحي. النسيمُ العليل يجرحهُم ومِزاجهُم أَرقُّ من ورقةِ السيجارة. يذرِفون الدموعَ بِسهولة لسببٍ او لغيرِ سبَب. فَهُمْ سريعو الإنفعال ولا تخلو قلوبَهم من نوعٍ من الكآبة والغَمّ. يشكون من كلِّ ما يَطرأ ويخفون في بطنِهم خَوفاً داخليّاً من كلِّ شيءٍ ويعيشونَ في حيرةٍ. تَعاطيهِم مع الناس غيرُ صريحٍ مئة في المئة لأَنّهم يظنُّون أَنّ كلَّ الناس حسَّاسونَ مثلَهُم. يحتجُّون دائماً بأَنّهم لا يُريدون أَن يجرحوا الآخرين ولا يُريدون أَن يُزعِجوا الآخرين. يمشونَ على رؤوسِ أصابِعِهِم أو بالأَحرى كما يقول مرسلٌ فرنسي: كأَنّهم يمشون على البَيض ويَخشون أَن يكسروا البيض، لا يمشون على الحجر والصخر. هم باستمرارٍ في تردُّد، وعلاقاتُهم مع الناس سطحيّة لأَنّهم غيُر قادرين على الإنفتاح والشفافيّة والأَخذ والعَطاء المنطِقي الواعي المدروس. هؤلاء الحسَّاسون يحتاجونَ الى التَداوي من الأَطباء النفسيّين أو لدى آباء روحيّين متينين ذوي فَهمٍ نفسانيّ. ولذلك نرفُضُ إحتجاجاتَ المحتجّين على الإستشهاد لأَنّ الإستشهاد هو بُغيةُ كلِّ مسيحيٍّ حقيقيٍّ.

وهناك المتنَعِّمون. المتنَعِّمون الّذينَ ينامونَ على أَسِرَّةٍ من الحرير، ويعيشونَ يدلِفون الى المآدب الفاخرة والى الخُمور الطيّبة والى الملابس الحريريَّة والى الرَّفاه الجسَدي والفخفخة العالميّة والمظاهر العالميّة والمجد العالمي. هؤلاء لا يُحبُّون الإستشهاد ولا الشِدّة في الطِباع. طباعُهم رخوَة، أَجسادُهم مائعَة، ولكن هذا لا يمنع من أن تُقَوِّي النعمةُ الإلهيّة أَحدُهُم ليموتَ شهيداً. تاريخيّاً بعضُ هؤلاء نَكَرَ المسيح و لم يستشهد. ولكن فيهم مَن استشهدَ. لكلُّ الخانعين هم ضدَّ الإستشهاد، كلُّ المتلوِّنين هُم ضدَّ الإستشهاد، كلُّ المسايرينَ بتطرُّفٍ هُم ضدَّ الإستشهاد والكذّابونَ هُم ضدَّ الإستشهاد، والمنافقون هُم ضدَّ الإستشهاد والّذينَ يتنازلون هُم ضدَّ الإستشهاد. فالتنازُل إرتخاء. حتى الإرتخاء في الأَحاديثِ خِيانة. يجب أَن يكونَ الإنسان صريحاً جريئاً صادقاً يشهَدُ للحقيقةِ في كلِّ مكانٍ. المسيحيّةُ لا تقبَلُ من الإنسان أَن يُسايِر على

حسابِ العقيدة، على حِساب الإيمان. بطرس الرسول واضح في رسالتِهِ الأُولى الإصحاح1: يجب أَن نشهَد لإيمانِنا. المسيح نفسُه صُلِبَ. من ينكرني أَمام الناس أَنكُرهُ أَمامَ أبي الذي في السموات.

الملاطفات الإجتماعيّة التي فيها نُكران لشيءٍ من الإيمان هي مرفوضة. هناكَ مَن يحرُصون على إرضاءِ الآخرين فيتنازلونَ عن شِدّة العقيدة الأُرثوذكسيّة. هذا كلُّهُ مرفوض. الأُرثوذكسي يَشهَد لإيمانِهِ الأُرثوذكسي في كلِّ زمانٍ ومكان من دونِ أَن يخشى السّيفَ والعِقاب. هكذا تكونُ الأُرثوذكسيّة والمسيحيّة بالأَحرى، كنيسةُ الشِدّة لا كنيسة الرخاوَة. المسيحي الحقيقي يُسَرُّ في الشدائد. يوحنا فم الذهب كتبَ مرّة أَنّ الكنيسة لا تلمع إلّا بأَزمنةِ الإضطِهاد. فحينما يُشَنُّ الاضطِهادُ على الكنيسة تلمَعُ الكنيسة. لو لم يشرُّوا الاضطِهاد على الكنيسة في روسيا لما سقَطَ الملايين من الشُهَداء الذينَ نفتخرُ بِهِم.

المسيحيّة صريحة. إمّا أَن تكونَ مع المسيح وإمّا أَن تكونَ ضدّ المسيح وليسَ من حلٍّ ثالثٍ. مَن ليسَ معي فهُوَ عليَّ، هكذا قال الربُّ يسوع. لا تستطيع أَن تعبُدَ ربَّين الله والمال ولا إمكانيّة للتَوفيق بين الخيرِ والشرِّ، بين النورِ والظلمة، بين المسيح وبليعال. المسيحُ هو واحدٌ لا يتبدَّل ولا يتغيَّر ولا ينحني. كلُّ الّذينَ يُبَسّطون المسيحيّة ينسفونَها. المسيحيّة لا تقبَلْ التبسيط ولا نقبَل المسيحيّة إلّا شديدةً كما علّمَنا بولس الرسول: مَن افتخرَ فليفتخِر بالرب، وأمّا انا فحاشى لي أَن أَفتخر إلّا بصليبِ ربّنا يسوع المسيح. وهو نفسُه قال في كورنثوس الثانية: وانا قد حكَمتُ بينكُم لا أَعرف شيئاً إلا يسوعَ وإيّاهُ مصلوباً. لا يُريد أَن يعرفَ مسيحاً غيرَ مصلوب. يُصِرُّ ويَلِحُّ على المسيح المصلوب "ولا تقبل مسيحاً آخر". المسيح الغير المصلوب لا يخلّصُني من خطاياي. يسوع المسيح خلّصَني من خطاياي وأَدخَلَني الفردَوس بدَمِهِ المسفوك على الصليب. بولس قال: مع المسيح صُلِبتُ فأَحيا. لا احيا أنا بل المسيح حيٌّ فيَّ.

كلُّ شيءٍ في الإنجيل والعهد الجديد هو مع الصليب لا مع الرخاوة، مع الصَوم والنُسك لا مع التُخمة والخمور. السكّيرون لا يدخلون ملكوتَ الله والخليعون لا يدخلون ملكوت الله. وليس ملكوتَ الله طعاماً أو شراباً بل هو نُسكٌ وصلواتٌ وصَلبٌ. إن كان يسوع قد صُلِبَ وهو البريء، فَكَمْ بالأَحرى أنا

بحاجةٍ الى الصَلب أكثرَ منهُ! إذن، لا رخاوةً في المسيحيَّة بل شِدَّةً. كلامي عسير ولكن هذا هو كلامُ الكتاب المقدّس. لا أستطيع أَن أُقَدِّم للناس مسيحاً مُتَرفِّهاً يرتدي الحرير. يوحنا المعمدان الناسك الكبير معروف، مريم المصرية الناسكة الكبيرة التي عاشت في الصحراء 40 سنة معروفة. هؤلاء هم نماذج لا أصحاب البطون. أشعيا النبي وبولس الرسول قالا: إلهُهُمْ بطنُهُم. الذين بطنُهم إلهُهُمُ لا علاقةَ لهُم بربّنا يسوع المسيح. مَن يَعبُد بطنَهُ وجيبَهُ لا يَعبُد يسوع المسيح. بولس الرسول علَّمَنا محبة المال هي عبادةُ أَوثان، ومحبةُ البطن كذلك عبادةُ أَوثان. لا إله إلا الرب يسوع المسيح والباقي بُطلانٌ تامّ. المسيحيَّةُ في القصور هي غيُر المسيحيَّة الحقيقيَّة. المسيحيَّة تصنعُ منّي ناسكاً لا شابّاً غاوياً. مثَل الغني وأليعازر في إنجيلِ لوقا مشهور: الكلاب أشفَقت على أليعازر والغني لم يشفِق عليه. الشَبَع يصنعُ قساوة القلب، والقاسي القلب ليسَ بإنسانٍ. الإنجيلُ واضحٌ. الكلبُ أفضل من هذا الغني القاسي القلب. بولس الرسول ذكرَ قساوة القلب. فقساوة القلب مرضٌ كبيرٌ جداً. عِبادةُ المال وعِبادةُ البطن تصنعان قساوة الحسّ والقلب. الغني لم يُحِسّ بأليعازر والكِلاب أَحسَّت بهِ.

المتنرفزون في هذه الدنيا لا حِسَّ سماويَّ لديهِم. يجب أَن نُغيّر الحِسَّ المادِّي ونبدِّلَهُ بحسٍّ روحيّ. ما كانَ يسوع يملك موضِعاً يضع رأسَهُ عليه. ولذلك الّذينَ يُريدونَ لنا مسيحيةً متَرَفِّهَةً غاويةً متنعّمةً، يُريدونَ لنا الموتَ الروحي. لا تعيشُ الروح إلّا على حسابِ موتِ الجسد، وموت الجسد نعني به موتُ أَهواءِ الجسد. حينما تُسيطرُ روحي تماماً على جسَدي يَشُعُّ الروح القدس في روحي وجسَدي. هذا الجسدُ المائت الترابيّ نُحَوِّلُهُ الى جسَدٍ سماويٍّ روحانيّ. هذه هي مهمَّة الإنسان المسيحي أَن يُحوِّل جسدَهُ الفاسد التُرابي الأَرضي المائت الى جسدٍ سماويٍّ يعيشُ مع الله الى الأَبد له المجد والإِكرام والسُجود الى أَبد الآبدين ودهر الداهرين آمين.